يمنى العيد: أعترض على أن ينافس النص النقدي النص الأدبي

حوار مفتوح مع الناقدة اللبنانية حول راهن النقد الأدبي العربي

يمنى العيد (غرافيك «الجديد»)

حنان عقيل
كاتبة مصرية

مسيرةٌ نقدية حافلة بدأتها الناقدة اللبنانية يُمنىٰ العيد منذ سبعينات القرن الماضي لم تركن خلالها إلىٰ منهج نقدي واحد يأسر رؤيتها النقدية بأغلاله، بل عمدت خلال ما يربو عن أربعة عقود من العمل النقدي إلىٰ مُحاورة المناهج النقدية والنصوص الإبداعية بُغية ربط النص بالمُتغيرات الاجتماعية دون أن يأسره المنهج أو حتىٰ المُحددات الماركسية التي أفادت منها في رؤيتها النقدية بمهارة وحذق. ومن هنا برزت تجربة يمنىٰ العيد كواحدة من أبرز التجارب النقدية اللافتة في العقود الأخيرة.

كان الوعي المعرفي بتشعّبات علاقة النص بالواقع هو هاجس الناقدة الأكبر، والذي شكّل رؤيتها النقدية، وقادها نحو رفض البنيوية الشكليّة مُتبنية أطروحات البنيوية التكوينية وبخاصة أطروحات لوسيان غولدمان.

وفي إطار الإفادة من الجهد النقدي الغربي والعربي سعت العيد لتكوين رؤيتها الخالصة والخاصّة مُجتازة في ذلك تحولات فكرية ومنهجية برزت عبر أعمالها بدءًا من "الدلالة الاجتماعية لحركة الأدب الرومنطيقي"، مرورًا بـ"في معرفة النص" و"الراوي: الموقع والشكل" و"في القول الشعري" و"تقنيات السرد الروائي" وغير ذلك من الأعمال النقدية التي تُعد مرجعًا أساسيًا في الأدب والنقد.

"الجديد" حاورت الناقدة يُمنىٰ العيد حول المحطات الرئيسية في عملها النقدي مُتطرقين للحديث عن بعض إشكاليات النقد العربي في الوقت الراهن وموقع المرأة في خريطة النقد والفِكر في العالم العربي.

● **الجديد:** كان النقد الماركسي هو محطتك الأولىٰ في عالم النقد لا سيما في كتابك "الدلالة الاجتماعية لحركة الأدب الرومنطيقي"، أيهما قادك نحو الآخر.. هل كان الفكر الماركسي هو المُحرِّك نحو اختيار الموضوع أم أن الموضوع هو الذي عزّز لديك التوجه نحو النقد الماركسي؟ وما حيثيات انجذابك نحو ذلك الفكر في مطلع مشوارك النقدي؟

■ **يُمنى العيد:** قبل كتابي "الدلالة الاجتماعيّة لحركة الأدب الرومنطيقي في لبنان" (1979)، صدرت لي ثلاثة كتب هي: "أمين الريحاني رحّالة العرب" (كانون الأول/ديسمبر 1970)، "قاسم أمين إصلاح قوامه المرأة" (كانون الثاني/يناير 1970). "ممارسات في النقد الأدبي" (1975). الكتابان الأوّلان لم تكن لهما علاقة بالماركسيّة، بل كانا أقرب إلىٰ الدراسة الكلاسيكيّة التي تُعرِّف بالأديب وحياته وعصره، إضافة إلىٰ أسلوبه وتحليل مختارات من نتاجه. أما الكتاب الثالث فهو عبارة عن مجموعة دراسات لموضوعات متنوّعة. تسعىٰ هذه الدراسات لكشف الموقف أو الرؤية الفكرية في النصّ، إضافة إلىٰ خصائصه الفنيّة. وقد مهدتُ لهذه الدراسات بفصل أول ميّزت فيه بين النظريّة والممارسة، وأكدتُ علىٰ حاجتنا، آنذاك، لممارسة النقد كي نستنتج من الممارسات النظريّة النقديّة بدل التقليد وإصدار الأحكام.

هاجسي الأول كان تكوين وعي معرفي، لا بالنّص الأدبي أو بما نقرأ بل بذواتنا وواقعنا، وعي معرفي ضدَّ الجهل الذي كان ثمنه، لدى كثيرين، الحرمان والبؤس ونسبة كل مصيبة إلىٰ القدر. وهو مما كنت أعاينُه حولي في نشأتي. لقد بقي هذا الوعي المعرفي هاجسي يوم دخلتُ سلك التعليم وأصبحت مديرة ثانويّة للبنات ثم أستاذة جامعيّة. وقد توسلتُ لذلك عدة سبل: أشير إلىٰ طرق التدريس، والحرص علىٰ مشاركة الطلاب في الشرح والنقاش، وفي نشاطات وأبحاث تعنيهم/ن، تُعرِّفهم/ن بذواتهم/ن تنمي وعيهم/ن بها وبواقعهم الذي يعيشون. من أجل هذه الأهداف كانت لي مبادراتي الشخصيّة غير المُدرجة في برامج التعليم، وهو مما يُعتبَر تجاوزاً ومخالفة ويُعرِّضني للعقوبة.

يوم مارستُ الكتابة النقديّة للنصوص الأدبيّة، بقي البحث عن هذا الوعي المعرفي في النصّ الأدبي هاجسي. كيف يمكن أن نرى، أو كيف يمكن أن يتمثل هذا الوعي المعرفي في النصّ الأدبي باعتبار كونه متخيّلاً له استقلاليته وفنيته؟ هكذا بدأ بحثي عن هذه العلاقة، غير المباشرة بين الأدب والواقع الاجتماعي الذي يعبِّر عنه الأدب، والذي سميته فيما بعد" المرجع الحي" باعتبار أن العلاقة بين الأدب، بما هو عالم متخيّل، وبين الواقع الاجتماعي، بما هو عالم معيش، هي علاقة غير مباشرة، وغير واحديّة، والكلام عليها يستند إلىٰ مفاهيم بلورتها عدةُ أبحاث ودراسات نظريّة.

كان مفهوم "الانعكاس" الماركسي بين البنية التحتيّة/الاقتصاديّة، وبين البنية الفوقيّة/الأيديولوجيّة بما هي وعي سياسي/اجتماعي، هو ما توسّله النقدُ الماركسي في قراءته لهذه العلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي، دون الأخذ بعين الاعتبار، عوامل خصوصيّة الأدب واستقلاله وتميّزه، أي هذه المفارقة التي يمارسها المتخيل الأدبي في بناء عالمه المميّز بفنّيته.

المنهج البنيوي

● **الجديد:** كان اتجاهك نحو المنهج البنيوي هو المحطة الثانية في مشوارك النقدي ثم سعيت للاستفادة من أطروحات البنيوية التكوينية مازجة بين الإجراءات البنيوية والفكر الماركسي لكنك فيما بعد استفدت من مناهج تالية كالتفكيكية والتلقي وغير ذلك.. هل تظنين أن علىٰ الناقد أن يرتبط اسمه وكتاباته بمنهج دون غيره؟ ما مدى أهمية ذلك؟

■ **يُمنى العيد:** بناء علىٰ المفارقة التي يُمارسها المتخيّل الأدبي/الروائي لبناء عالمه المميّز، وجدتُ أن عليّ بداية أن أعرف مما تتكوّن البنية الفنيّة للنصّ الأدبي/الروائي، أو ما هي عناصر هذه البنية المكوّنة له باعتبار استقلالها وتميّزها؟ هكذا كان كتابي "تقنيّات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي" بهدف معرفة عناصر بنية النص الروائي، وليس بهدف اعتماد البنيويّة منهجاً نقديّاً.

وبالمناسبة أشير إلىٰ أنَّ هذا الكتاب هو مجموعة محاضراتي لطلاب الماستر في الجامعة، وقد ساعدهم/ن ذلك علىٰ التعمق في قراءة العمل الروائي وتقييم خصائصه الفنيّة دون أن يكونوا بنيويّين.

لم يتوقف بحثي هنا، ولم تكن البنيويّة جواباً علىٰ سؤالي النقدي النظري، أي عن العلاقة بين النصّي والمرجعي المعيش. كانت البنيويّة خطوة مساعدة جنبتني الوقوع في نظريّة الانعكاس التي نُسبتْ إلىٰ الماركسيّة. من المؤسف أن كثيرين صنفوني، بشكل اعتباطي، ناقدة بنيويّة باستثناء قلة هم، في معظمهم من النقاد والباحثين المغاربة.

هكذا، وكما سعيت للإفادة من البنيويّة، سعيت للإفادة من البنيويّة التكوينيّة، من لوسيان غولدمان بشكل خاص، ثم من ميخائيل باختين. ولكني كنتُ أسأل عن معنىٰ أدبنا باعتباره معنىٰ يتحصّل من صراع في واقع اجتماعي معيَّن، وعلىٰ حدٍّ تاريخي به تتعيّن حقيقة المعنىٰ، وبه تتشكّل الضرورة التي تحكم بنية النصّ ومنطق أنساقه. أعتقد أنه لا يجوز أن نتصرف "وكأنَّ الأمر لا يتعلّق بأفكار تُعنىٰ بمصير الناس"، وبواقعهم الذي يعيشون.

لقد انتقدت التقليد الذي غلب علىٰ نقدنا البنيوي، والذي تمثل، بشكل خاص، في الوقوع تحت تأثير التيار التفكيكي ومحاكاة آلياته دون غاياته. من هذه الغايات، بالنسبة إلىٰ بعض الباحثين الغربيين، تأكيد أحكام، تتعلّق بالأدب، تأكيداً علميّاً يستند مثلاً إلىٰ الإحصاء.

> النقد المنهجي ليس بالضرورة تطبيقاً، بل هو طريقة في النقد لها أساسها النظري. التطبيق عمل مدرسي ويدلُّ على قصور في الممارسة النقدية المنهجية

إشكالية المنهج

● **الجديد:** يقودني ذلك إلىٰ سؤالك حول إشكالية الاستغراق في الإجراءات المنهجية وتأثيرها السلبي في أحايين كثيرة في تحليل النصوص وما يظهر من محاولات تطويع النص الأدبي بما يلائم المنهج النقدي.. إلىٰ أي مدى تظنين أنك استطعت التحرر من تلك الإشكالية؟ وكيف ترين تأثيرها علىٰ النتاج النقدي العربي؟

■ **يُمنى العيد:** بالنسبة إليّ، ليس المنهج هو ما حكم تجربتي، لقد تعاملت مع مفاهيم نظريّة بهدف معرفي يخصُّ علاقة المتخيّل الأدبي بالواقع الاجتماعي بصفته المرجعيّة، وكان هدفي هو ما يقوله النصّ وكيف يقول. أشير إلىٰ: مفهوم القراءة، التأويل، الإحالة، المرجع...

أما بالنسبة إلىٰ نقدنا العربي، فقد كانت هناك محاولات تحديثيّة، استغرقت بعضَ النقاد، وتجاوزها البعضُ الآخر، وغلب علىٰ بعضها التقليد، وقد تكلمتُ عن ذلك في أكثر من مناسبة. أشير في هذا الصدد إلىٰ دراستي المنشورة في كتابي "في مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية" تحت عنوان "النقد العربي والتيارات العالميّة، المعنىٰ الغائب".

لقد أكدتُ، في هذه الدراسة، علىٰ ضرورة وضع النقد العربي والأدب في حقلهما الثقافي، باعتبار خصوصية أدبنا وما يترتب علىٰ النقد باعتبار هذه الخصوصية، مؤكدة علىٰ أهمية أن "يتشارك النقد والأدب همّاً يتجاوزهما إلىٰ الثقافة والحياة، أو إلىٰ حضور الحياة، حياتنا، في الأدب".

وفي تعليقي علىٰ البنيوية والإفادة منها، قلتُ "لئن كانت البنيوية تجربة تاريخيّة فإن التجربة لا تُنقَل ولا تُحاكىٰ. والإفادة من منجزاتها، من مفاهيمها المعرفيّة، أي مما له طابع كوني، يدعو إلىٰ تجربة أخرى لا تتجرّد من تاريخيّتها، أي يدعو إلىٰ جدل وتحويل هما بمثابة إنتاج ما يسميه عبدالله العروي "إبداع اتجاه ثالث" يستند إلىٰ معرفة بتجربتنا التاريخيّة، أي إلىٰ ما يُنجي نقدَنا من التقليد ولا يوقعه في الرفض بالمطلق.

الوعي المأزقي

● **الجديد:** في كتابك "الكتابة تحول في التحول" قلت "لئن كان علىٰ الوعي الأدبي أن يُنتِج معرفة بالواقع أعمق من ظاهره وأبعد من حدود راهنيته، فإن هذا الوعي يبقىٰ محكوماً بهذا الواقع لا سيما عندما يتحدّد هذا الواقع بوصفه واقعاً مأزقيّاً. فالأفق لا يبدو واضحاً أمامنا، ومستقبل هويتنا القومية أشبه بعلامة استفهام في هذا العالم الذي زلزلته أحداث كبرى".. ألا ترين أن مشكلة الواقع المأزقي كانت حاضرة في أغلب الأوقات في البلدان العربية ورغم ذلك كان هناك ذلك الوعي الذي نتحدث عنه لدى بعض الكتاب وفي بعض الكتابات دون الأخرى ومن ثم هل يمكن الحديث عن عوامل أخرى أكثر تأثيراً في غياب ذلك الوعي؟

■ **يُمنى العيد:** ما قلته، عن الوعي المأزقي، جاء في سياق بحثي عن الأدب الروائي بشكل خاصّ، الذي أنتجه كتاب لبنانيون في زمن الحرب اللبنانيّة، وهو أدب تميّز بسرده الفني عن سرد الروائيين اللبنانيين السابق، كما عن الرواية العربيّة، دون أن يعني هذا التميّز معيار قيمة. وقد استوقفني هذا التميّز واعتبرته، كما أظهرت في كتابي المذكور، علىٰ علاقة بالمسرود، أي بالحكاية عن واقع الحرب التي كنا نعيش.

هذه الحرب التي كانت في وجه بارز منها اقتتالاً بين اللبنانيين، أي هي حرب أهليّة وعلىٰ حد الانتماء الطائفي، ولم تعرف مثلها البلدان العربيّة آنذاك.